الإسلام والعالم

أديت فريضة الجمعة فى الكعبة ؛ فى غير موسم الحج ؛ فجلست فى المسجد ؛ أجيل النظر فى الجموع الحاشدة التى امتلأ بها صحن المسجد ، وقد ضمت صورة مصغرة للعالم الكبير ؛ على ترامى أنحائه وأطرافه ، وتعدد أجناسه وأصنافه ؛ وكان معى زملاء رحلة ، رجال أشداء صناعتهم القتال ، فراعنى أنى رأيت الدموع تنحدر على وجناتهم ، وكأنهم أطفال ، من فرط التأثر بجو المكان ، والذكريات التى تتداعى فى نفس المسلم بالجلوس فيه . أما أنا فقد رحت أتأمل فى وجوه المصلين ، الذين وفدوا من كل صوب وحدب من دنيانا ، مستمتعاً بالنظر إلى حمام الحرم ، وهو يرسم فى الجو خطوطاً ودوائر ، يحطّ ويشيل ، كما يحلو له ، رمزاً ناطقاً بالسلام والسكينة والحرية . فلما أذن المؤذن ، وأقبل الخطيب ؛ أحسست بوجيب قلبى عنيفاً ، حتى خيل إلى أنه موشك أن يقفز من مكانه . فلما وصل الخطيب إلى آخر درجات المنبر ، ثم استدار ليواجه المصلين ، بلغت الغاية من التأثر حتى أوشكت أن أنتظم فى سلك الباكين ؛ ذلك لأنى تصورت نفسى على هذا المنبر ، أخطب العالم مجتمعاً وممثلا فى هذه الألوف من المصلين الهادئة وجوههم ، الخاشعة قلوبهم ، متجهين إلى قبلة واحدة ، مسيرين بعقيدة واحدة ، يظلهم تاريخ واحد . ماذا عسى أن أقول لهم ، والعالم الإسلامى فى أيدى سادة العالم وأمرائه ، كالكرة يتقاذفونها بالأيدى أو بالأرجل ؟ ولكن الخطيب أسرع إلى نجدتى ، فقد وقف هادئاً ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، وأخذ فى صوت رتيب ، يخطب فينا ، كأننا لم نقطع الفيافى والقفار ، راجلين أو طائرين ، لنشهد هذه الساعة ومثيلاتها ، أو كأننا فى مسجد بعطفة من حارة فى حى من أحياء بلدنا ،

فقد حدثنا يومذاك ، فى شأن من شئون دنيانا التافهة ، فرحت أحدق فيه ، وكأنى لا أصدق أذنى ، ولا عينى ، ثم استحالت الحرارة فى بدنى وقلبى ، إلى برودة ، فلما نهضت إلى الصلاة ، كنت شبحاً بلا روح .

ما حدث يومذاك هو خير بيان لحال الإسلام منذ سنوات ، التى لا أدرى كم تغيرت اليوم ، لقد كان الإسلام نسراً محلقاً ، يصل إلى قمم الجبال الشوامخ ، ويطل على العالم الفسيح ككل متصل ، ثم أصبح كبط الترع ، له جناحان ، ولكن لا يرفعانه عن مستوى الماء الضحل . لقد تقلصت عالمية الإسلام ، وكونيته ، فأصبح ديناً محلياً ، وهو الدين السماوى الذى جاء رسوله ، ليخاطب الدنيا قاطبة ، خاطب القرآن النبى بقوله : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) . ورب المسلمين ، هو رب المشارق والمغارب ، وهو رب العالمين ، والخطاب فى القرآن موجه للناس ، وقاعدة الإسلام الكبرى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وقول الرسول : « كلكم لآدم » .

بدأ الإسلام قوة عالمية ، واستمر قوة عالمية حتى سقطت دول المسلمين فى يد الاستعمار . فمنذ الأيام الأولى وجهت دعوة الإسلام إلى أكاسرة وقياصرة وأمراء القوى الكبرى فى العالم ، وجهت إليهم من هذه القرية الصغيرة « مكة » ، فوصلت إلى حواضر الحضارة المزدهرة ، المزدهية بقوتها وجاهها ، المدلة بسلاحها وسلطانها ، وبقى الإسلام قوة عالمية فى صور مختلفة : تارة بما ينقله للعالم من ثقافة علماء القدماء التى أثرت فى عقول البشر ، وصاغت أفهامهم وأفكارهم حتى اليوم ، وتارة بما يضيفه إلى علم الإنسانية من طرائق مستحدثة ، وتعديلات غير مسبوقة ، وكشوف لحقائق مجهولة ، وتارة ثالثة بما قدمه من نماذج بشرية عالية ، فى دنيا الفلسفة والعلم والفقه والإدارة وقيادة الدول والجيوش . وتارة رابعة بالصراع الذى نشب بينه وبين العالم المسيحى ، وأخذ صورة

الحروب ، وصورة السياسة ، بمناورات ومحاورات ، أو بمعاهدات ومحالفات . وقد تشكل تاريخ الإنسانية بهذه الحروب العالمية : الحروب مع إمبراطورية بيزنطة ، التى انتهت بسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين ، وبحروب أمراء الغرب ضد دولة المسلمين فى الأندلس ، التى انتهت بانتصار شارل مارتل ، فى بواتييه . على أن الحرب الصليبية ، التى استمرت قرنين أفادت المعسكرين ، فقد وحدت المسلمين ، وأدت إلى دنو القبائل التركية من أواسط آسيا إلى الشرق الإسلامى ، كما أتاحت للمسيحيين أن يدركوا مدى تخلفهم عن أهل الشرق ، فكانت بداية عصر النهضة عندهم ، إذ نقلوا عن المسلمين ما نقلوا .

وكان آخر مراحل حياة الإسلام العالمية ، نشوء الدولة العثمانية ، التى بدأت حياتها بدخول « عثمان باديشاه » مدينة بورصة سنة ١٣١٧ ، فقد حاول الاستعمار الغربى على مدى أربعة قرون أن يزيحها من الوجود ، فلما ضعفت ثم انهارت ، تدفق زحف الاستعمار الغربى ، على بلاد المشرق والمغرب العربى ، وبدأت الصهيونية العالمية تعربد ، وتوجه الاستعمار الغربى ، وتمتطى ظهره ، وتمده بالقوة ، وتأخذ منه العون ، حتى كانت كارثة الإنسانية الكبرى ، التى تسمى « إسرائيل » .

نجحت عوامل الضغط المختلفة ، العسكرية والسياسية والفكرية ، فى التضييق على الإسلام وخنق روحه العالمية ، فأخذ علماؤه ومفكروه ، وساسته وقادته ، يدخلون فى مواقع المحلية ويقنعون بفتات السياسة والفكر . وتمزقت هذه الوحدة التى كانت تظل علماء الإسلام ومشرعيه وفقهاءه وأدباءه ، والتى أعانتهم على أن يتصلوا على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى الرغم من وعثاء السفر ، وصعوبة الاتصال ، فقد كان العالم المسلم يخرج من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه بلا حواجز ولا جوازات ، لا يستوقفه أحد ، ولا يسأل إلى أين يذهب .

ولقد حدث أن اشتدت الحملة على « الدين » كفكرة ، حتى

أصبح متهماً ، يطلب منه أن يدفع عن نفسه ، ثم ما لبث أن استعاد اعتباره ، حتى عند ألد خصومه ، فقد أدرك الذين يتعقبونه بالاتهام ، ويطاردونه بالتشهير ، أنه كان ولا يزال قوة تحرر وتضال ضد كل ما رسفت فيه الإنسانية من أغلال الاستبداد والاستئثار بالسلطة ، واستغلال الضعفاء ، وأن أكبر عيوبه فى الرجال الذين ينتسبون إليه زوراً ، ويتجرون باسمه باطلا ، وأن الجرائم التى ارتكبت باسمه ليست فى مثل قبح ما ارتكب باسم العلم والفلسفة والفن . فعلى أقل القليل لم يصنع الدين القنبلة الذرية ، ولا الهيدروجينية ولا الصواريخ الحاملة للرءوس النووية ، كما لم يصنع الأدوات والأجهزة التى هتكت أسرار الناس ، واقتحمت عليهم عزلتهم ، وارتفعت بالجاسوسية العالمية والعلمية إلى مرتبة القانون المقدس ، الذى لا يخجل من تطبيقه أحد .

ومن ناحية أخرى لم يستطع رجال الدين مهما ساء مسلكهم ، وخدموا القوة الظالمة ، أن ينافسوا العلماء الذين سلحوا الطغاة ، وجمعوا لهم المال ، ولا الأدباء والقراء والمصورين الذين باعوا أقلامهم وفنهم ، فى سوق النفاق السياسى ، بضاعة مزجاة .

ولما كانت الأزمة الإنسانية قد بلغت ذروتها ، ولم يعد أحد قادراً على إنكار تعثر الإنسان ، وامتلاء طريقه بالصعاب ، وامتلاء حياته بالآلام ، وقصور أجهزة التدقيق والتنسيق التى أعدت للأخذ بيده ، وانتشاله من وهدته ، فإن كل قوة مدعوة للإسهام فى الدفاع عن مستقبل الإنسان ، وتحريره من القيود التى لا يتحطم منها واحد ، حتى تنبت بدله عشرات ، وإطلاق طاقاته ، وصيانة خير تركاته ومأثوراته ، والتقريب بين شعوبه وجماعاته .

ولا جدال فى أن الدين النقى الخالص ، هو فى مقدمة هذه القوى التى توجه إليها الدعوة ، ولا جدال فى أن الإسلام العالمى ، أول ما تتجه إليه قلوب المؤمنين فى سلام إنسانى طويل العمر ، عادل ، مستقر ،

فإن يده لم تلوث بما لوثت به أيدى الآخرين من دماء الشعوب التى استعمرت ، ولا الشعوب القوية التى دمرت مدنها ، وخربت بيوتها ، وقتل رجالها ويتم أطفالها وترمل نساؤها .

ولكى يؤدى الإسلام دوره العالمى يجب :

أولا : أن يؤمن المسلمون بدورهم الإنسانى والعالمى ، وأن الأزمة الإنسانية الكبرى التى تمر بها فى حاجة إلى روح الإسلام العالمية ، وفكره الإنسانى ، وتقاليده وأساليبه فى التقريب ، وقدرته على التنسيق .

ثانيًا : أن يزدادوا علمًا بثقافتهم وعلومهم ، وأن ينفضوا عنها الغبار ، ويقربوها للأطفال والشبان ، وينشروها فى ملخصات ويعلقوا على المطولات ، ويشرحوها ، ويفهرسوها ، ويبوبوها ، ويقارنوا بينها وبين ما وصل إليه العلم الحديث .

ثالثًا : أن يعيدوا النظر فى برامج التطوير التى أدخلت على الجامعات الإسلامية ، على أن يكون أساس هذا التطوير ، طالب الجامعة الإسلامية ، الذى حصل العلم الإسلامى من تفسير وحديث وفقه ولغة منذ مطلع حياته الدراسية ، مقرونة بالعلوم الحديثة من رياضة وعلوم وآداب ، فإذا دخل هذا الطالب الجامعة الإسلامية الكبرى ، والتحق بكلياتها التى تلقن العلم الحديث من طب وقانون وهندسة وصيدلة ، تخرج فيها طبيبًا أو مهندسًا متميزاً عن زملائه الذين أتموا علمهم فى الكليات العلمانية البحتة وأفادت منه الإنسانية بوصفه عنصراً جديداً .

رابعًا : يجب بذل جهد خاص ودءوب ومثابرة لجعل اللغة العربية اللغة الثانية فى جميع بلاد المسلمين التى لا تتكلم العربية .

خامسًا : إعداد ما يلزم للشعوب الإفريقية والآسيوية من معلمين وكتب فى مادتى الدين واللغة ، سهلة ، مبسطة ، جميلة الطبع ، حسنة التنسيق .

سادسًا : يجب إعادة النظر فى مادة ومنهج التربية الدينية فى مدارس الدول الإسلامية ، وجعلها أرحب أفقًا ، وأيسر تناولا ، وأكثر اتصالا بشئون الدنيا .

سابعًا : يجب أن يصل علماء المسلمين أمتهم بمشكلات الدول الإسلامية ومشكلات العالم بأسره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن يكون لهم رأى فيها .

ولعل هذا بعض ما يجب على الإسلام بحكم كونه عقيدة عالمية .